أبحاث ندوة عمارة المساجد، م ٣ أ، ص ص٣٧-٥٦، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود (١٤١٩ هـ/ ١٩٩٩م)

التشكيل الفراغي وتأثيره على علاقة المسجد ببيئته العمرانية

صادق أحمد صادق سعد

قسم العمارة, كلية الهندسة, جامعة الزقازيق, فرع بنها

القاهرة, جمهورية مصر العربية

ملخص البحث: يعكس تشكيل النسيج العمراني بوضوح الأنماط الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي أصابت مجتمعاتنا بالتغريب، وتعتبر ظاهرة فصل وعزل الكتل المعمارية عن بعضها البعض أحد المعالم الرئيسية لهذه الظاهرة، والتي انعكست بوضوح على علاقة المسجد ببيئته العمرانية عن طريق فصله وعزله عنها. فهل هذا الفصل أو العزل عن الكيان العمراني المحيط لمصلحة المسجد؟ أم يلعب هذا الفصل المادي باستخدام الفراغات المفتوحة دورا مضادا، فيساهم في عزله وظيفيا واجتماعيا ...الخ عن البيئة والمجتمع المحيط؟

بتحليل الاشتراطات الفكرية والقيم الرمزية المورفولوجية الكامنة وراء مفردات لغة التشكيل الفراغي، وتأثير النمطين العمرانيين التاريخي (المدمج) والمعاصر (المتناثر) على المسجد وانعكاس أساليب التشكيل الفراغي على القيم الحياتية للمجتمع المسلم، أمكن الوصول إلى صورة أوضح لتأثير كلا النمطين العمرانيين على علاقته ببيئته العمرانية المحيطة.

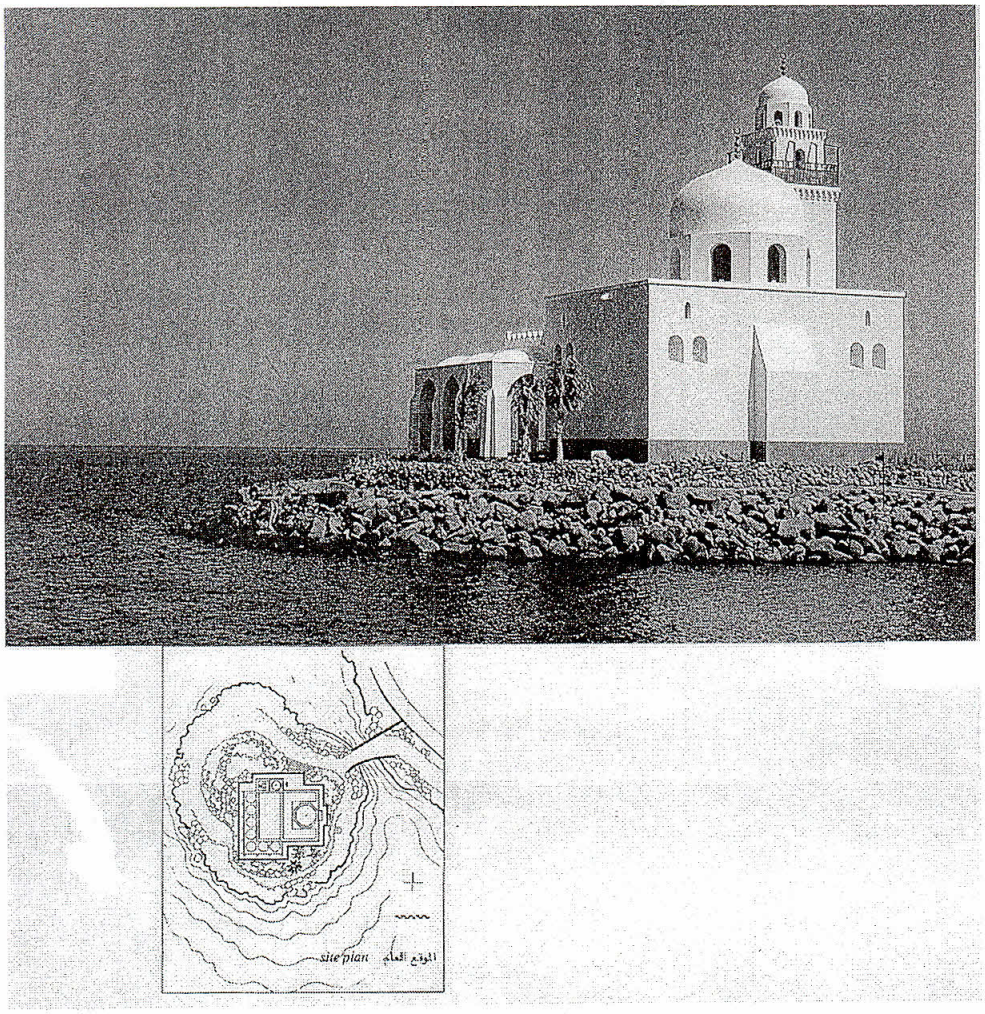
و يؤدى النمط الفراغي المفتوح لعزل وتفتيت النسيج العمراني في شكل جزر معمارية منفصلة، مما ينعكس سلبيا على علاقة المسجد بأفراد المجتمع وعلى علاقة أنشطة المسجد بأنشطة البيئة العمرانية المحيطة، فيساهم عزل المسجد فراغيا عن بيئته العمرانية في عزله اجتماعيا ووظيفيا ...الخ عن المجتمع المسلم حوله.

وفي المقابل لا يؤدى النمط المدمج إلى أن يفقد المسجد شخصيته البصرية المعمارية التي يجب أن يتميز بها داخل النسيج العمراني المحيط بل يساهم في تفعيل دور المسجد وزيادة الترابط الاجتماعي والوظيفي والبصري والجمالي بين المجتمع المسلم ونسيجه العمراني من طرف والمسجد من طرف أخر، مما قد يساهم في إعادة التشكيل الفراغي للنسيج العمراني حول المسجد بالمناهج التشكيلية الفكرية للأنماط العمرانية المدمجة في تطوير علاقة المسجد بالمجتمع في الاتجاه الإيجابي.

المقدمة

يلعب المسجد في العصر الحديث دورا هاماً في حياة المجتمع المسلم، فلم يعد مجرد فراغ معماري لإقامة الشعائر الدينية والصلاة، وتلقى بعض دروس الوعظ والإرشاد. وقد أخذ التأثير الثقافي الغربي والانبهار بالأنماط الفكرية والسياسية والتكنولوجية الغربية مداه في القرن العشرين مما انعكس بالتبعية على أنماط التشكيل العمراني والمعماري للمدن الإسلامية، فظهرت دعوات الانفصالية والانعزالية والتشتت والاستقلالية المعمارية الفردية وهيمنة الكتل المعمارية على الفراغات العمرانية حولها، ليس فقط عن طريق ضخامتها، بل أيضا عن طريق تفريغها من مضمونها

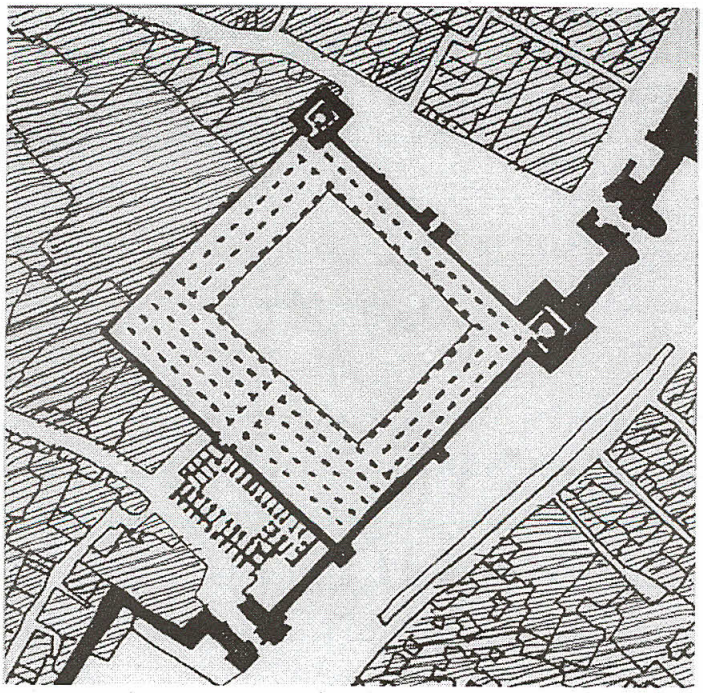
العمراني وعزلها عن النسيج العمراني من حولها[١]، فانفصل المسجد عن بيئته العمرانية المحيطة بعد أن فقد دوره المشارك في صنع المجتمع المسلم، ووقع بمعزل[٢] من الكيان العمراني المشترك للمدينة. (ويمثل شكل١ نموذجا متطرفا لذلك الانعزال).



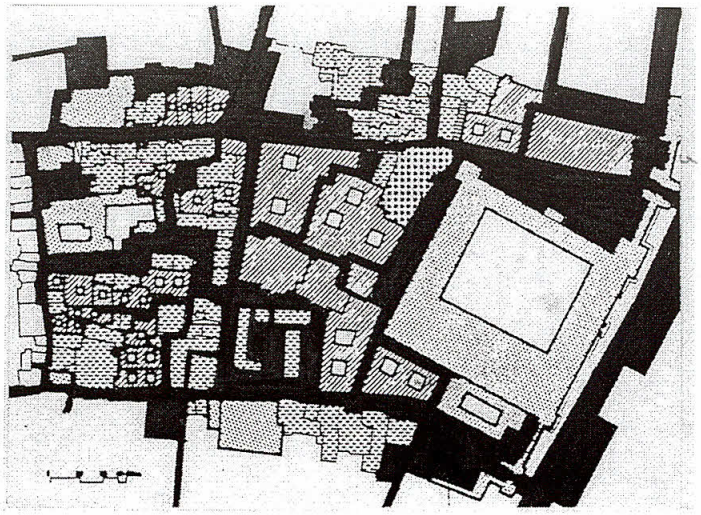
شكل ١: مسجد معاصر: جدة، المعماري: عبد الواحد الوكيل، المسجد تحول من كيان وظيفي عمراني إلى قطعة نحتية جمالية منفصلة تماما عن بيئته العمرانية لدرجة وضعه في جزيرة فعلية في البحر. [٢١،ص٧٣]

[١] وقد انتقلت هذه العدوى إلى أفكار "إعادة تخطيط وتطوير" المناطق الأثرية التاريخية للمدن حيث يقدم بعض المخططين الأفكار التخطيطية الداعية إلى عزل وفصل المباني الأثرية التاريخية- والمرتبطة بشدة بالنسيج العمراني المحيط – عن النسيج العمراني عن طريق إزالته من حول المبنى الأثري أو المسجد التاريخي. [٣، ص٥٢٥ - ٦٣٣]

[٢] المقصود بالعزل هنا هو إحاطة المنشأ المعماري بفراغات مفتوحة لفصله عن النسيج العمراني المحيط به.



شكل ٢ أ: منطقة جامع الحاكم : الوضع الراهن. [٢٢]



شكل ٢ ب: اقتراح بإعادة تخطيط المنطقة : فصل المسجد عن محتواه العمراني. [٣]

فبغض النظر عن وجهات النظر المعمارية والعمرانية المختلفة والمتباينة في كثير من الأحيان، والتي يسود أغلبها مجموعة من المسلمات الفكرية التي تساهم وتنمى أنماط العزل والفصل الفراغي بين مكونات المدينة المادية -ومنها المسجد- والتي تقع تناقضاتها غالبا في جذور التغريب الثقافي والحضاري الذي تعانى منه مجتمعاتنا المسلمة، وساهمت قوانيننا العمرانية والمعمارية في تذكيتها وتحويلها إلى أنماط عمرانية سائدة وأصلية، وحولت الأنماط

العمرانية الأخرى -التاريخية- إلى أنماط شاذة ومرفوضة، بدون محاولة الرجوع إلى أصولها الحضارية أو دراسة وتحليل جوانبها الإيجابية والتعرف على حقيقة سلبياتها ومحاولة علاجها، لازالت هذه الأنماط التاريخية تطل علينا بجماليات تشكيلها الفراغي والمادي ومعاييرها الإنسانية الإيجابية.

إن كل قرار تصميمي يؤدى بالضرورة إلى نمط تشكيلي محدد، وحيث إن كل نمط تشكيل عمراني يؤثر بالتبعية في التصميم -وإن كان ينتج أيضا من- المجتمع الذي يحيا بداخله ومن خلاله، لذلك نرى أنه من الأهمية أن نلقى الضوء على القيم الفكرية للأنماط الفراغية العمرانية المختلفة، ولكن كيف يمكن التعرف على انعكاس تأثير وتأثر التشكيل العمراني بالعوامل السابقة؟

من خلال تحليل أنماط الفراغات العمرانية وقيمها الاجتماعية والجمالية وتطورها التاريخي، يكون واضحا أن كل مفهوم تصميمي "Concept" يمكن تعريفه بواسطة مجموعة متنوعة من احتمالات التشكيل الفراغي عن طريق اتخاذ قرارات تصميميه أولية، وبذلك يمكن اقتفاء أثر التأثير التاريخي على المجتمع من خلال دراسة وتحليل نوعية التشكيل الفراغي وأنماطه. وحيث أن تأثير التشكيل الفراغي للبيئة العمرانية لا ينحصر على مستخدمي هذه الفراغات أو على الأنشطة والوظائف التي تمارس فيها فقط، ولكن يتعدى إلى حدود أبعد من ذلك بكثير، فيؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر أو بشكل إيجابي أو سلبي على الأنشطة والوظائف التي تمارس داخل الكتل المعمارية ذاتها وعلى ارتباطها ببيئتها العمرانية وعلى المقيمين داخلها، فهل هذا الانعزال والانفصال عن الكيان والنسيج العمراني المحيط لمصلحة المسجد؟ وهل يقوم فعلا بتمييز المسجد وإعلاء قيمته المعمارية والوظيفية في بيئته العمرانية؟ أم إن هذا الانعزال وهذا الفصل المادي يلعب في واقع الأمر دورا مضادا ومعكوسا تماما؟ فيؤدى عزل المسجد فراغيا عن بيئته العمرانية المحيطة إلى عزله وظيفيا عن المجتمع القاطن لهذا النسيج العمراني؟ لا يمكن اعتبار هذا البحث أكثر من محاولة في اتجاه التأكيد على مجموعة من المزايا النوعية لأحد هذه الأنماط العمرانية التاريخية -والتي تميز بها العمران الإسلامي- عن طريق دراسة وتحليل المزايا الجمالية والبصرية والوظيفية الإنسانية لتشكيل فراغاته بعلاقتها بأحد المباني الهامة جدا للنسيج العمراني للمدن الإسلامية -إن لم يكن أهمها على الإطلاق- وهو المسجد. فقد يساهم تحليل القيم الفكرية لأنماط التشكيل الفراغي العمراني المختلفة واستكشافه باستعمال المدخل الاستقرائي التحليلي المورفولوجى -عن طريق التأكيد على فوائده ومزاياه النوعية والتنظيمية في تقييم التشكيل الفراغي للبيئة العمرانية- في توضيح التساؤل المطروح هنا. فعن طريق دراسة وتحليل تأثير التشكيل الفراغي على علاقة المسجد ببيئته العمرانية المادية والإنسانية -حيث قد يؤثر هذا التشكيل الفراغي بالسلب أو بالإيجاب على تفعيل دور المسجد في المجتمع المسلم- يمكن الوصول إلى صورة إيجابية أوضح عن إحدى الصفات الهامة لهذا النمط العمراني التاريخي وتأثيره على تشكيل المجتمع المسلم، وللتعرف على تأثير التشكيل الفراغي على علاقة المسجد ببيئته العمرانية سيتم أولا التعرف على الاشتراطات الفكرية النظرية للأنماط العمرانية، وعلى أساليب تشكيل العلاقات الفراغية المختلفة ومعاني رموز لغتها التصميميه، فعن طريق التعرف على أسس تصميم مختلف العلاقات الفراغية وإشتراطاتها الفكرية يمكن الربط بينها وبين الرموز التشكيلية لمفردات اللغة التصميميه لكل نمط عمراني، وهذا بهدف استنتاج مساطر قياس يمكن أن تؤدى إلى تقييم موضوعي أفضل لتأثير التشكيل الفراغي

لمختلف الأنماط العمرانية على دور المسجد في بيئته العمرانية. وسوف يتم ثانيا اختبار مساطر القياس تلك على عينة تاريخية نوعية من العمران الإسلامي (المسجد) ومقارنتها بعينة تاريخية نوعية من العمران الأوروبي (الكنيسة) بهدف اختبار الاشتراطات الفكرية والتشكيلية النظرية عمليا، وتهدف المقارنة التأكيد على الاختلاف النوعي بينهما وعدم مناسبة الاقتراض الفكري لتلك الأنماط الأوروبية وذلك بالمقارنة بينهما في الموقع وأسلوب التشكيل العمراني داخل النسيج الحضري للمدينة لنفس الحقبة التاريخية (العصور الوسطى). فكما يساهم هذا التحليل وتلك المقارنة في توضيح أوجه الاختلاف الوظيفي والتشكيلي بين المسجد والكنيسة، يساهم أيضا في بلورة مساطر القياس المستعملة وصقل القيم الفكرية والمعايير التشكيلية المستنبطة هدف البحث. وهذا التحليل وتلك المقارنة ستتم من مدخل مورفولوجى نوعى"Qualitative" عن طريق التعرف على الرموز الفكرية الكامنة وراء اللغة التصميميه، حيث سيتم اختيار مجموعة من الأمثلة النوعية التي لا يهدف اختيارها ألا التعبير عن معاني هذه الرموز بأوضح صورها فقط، وذلك بهدف التعرف مورفولوجيا على أوضح مزايا التشكيل الفراغي الإسلامي وتأثيره على علاقة المسجد ببيئته العمرانية.

الاشتراطات الفكرية لأنماط التشكيل الفراغي العمراني

يتميز النسيج العمراني بنمطين أساسيين للتنظيم الفراغي: [٥،ص٦٤]

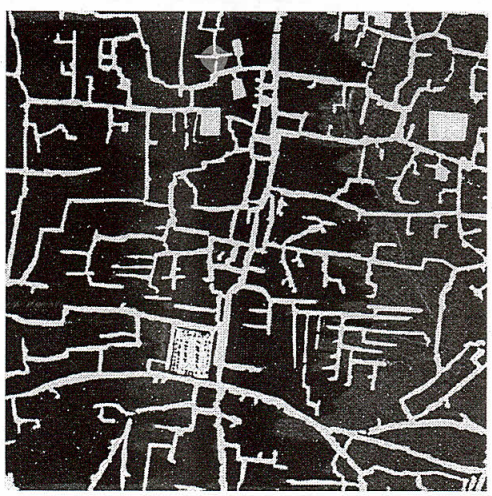
النمط الفراغي العمراني المدمج، وهو نمط عمراني يتم فيه تجاور وتلاصق كتل المباني المعمارية مع التركيز الشديد في الأراضي، وتعدد الأنشطة والوظائف، واستعمالات الأراضي. وتتعدد أساليب تشكيل النمط المدمج وتختلف حسب المعايير الثقافية والاجتماعية والبيئية ...إلخ، فيظهر منها النمط المدمج ذو الإطلال على الداخل والنمط المدمج ذو الإطلال على الخارج والنمط المدمج الشريطي أو النمط المدمج المجمع المركزي ...إلخ. (ويمثل شكل٣ نموذجا تاريخيا للنمط المدمج) النمط الفراغي العمراني المفتوح أو المتناثر، وهو نمط أنتشر في العصر الحديث على مستوى العالم كله باختلاف مجتمعاته (وتنبع أصوله وجذوره التاريخية من المدن الرومانية والمدن الأوروبية للفترة التاريخية التالية للثورة الصناعية في أوروبا) ويتميز بتناثر وانعزال كتله المعمارية بعضها عن بعض بإحاطتها بالفراغات المفتوحة، وأحادية استعمالات الأراضي (نسبيا) وتتعدد أيضا أساليب تشكيله وتختلف حسب المعايير البيئية والاجتماعية ...إلخ. (كما في الأشكال ٤، ٥، ٦ تمثل مجموعة من النماذج النمطية للنمط المتناثر).

وبينما تصنف العلاقات الفراغية إلى ثلاثة أنواع:

- العلاقة الفراغية بين الفراغات الخارجية وبعضها البعض، ويطلق عليها (اختصارا): الفراغات الخارجية-الخارجية.
- العلاقة الفراغية بين الفراغات الخارجية والداخلية، ويطلق عليها (اختصارا): الفراغات الخارجية-الداخلية.
- العلاقة الفراغية بين الفراغات الداخلية وبعضها البعض، ويطلق عليها (اختصارا): الفراغات الداخلية-الداخلية.

وتتميز كل علاقة من هذه العلاقات بمفرداتها اللغوية التشكيلية الخاصة بقراراتها الفكرية, كما تتشكل هذه العلاقات الفراغية -بالمقابل- في ثلاثة مفاهيم تصميميه رئيسية هي:

- الفصل الفراغي[٣]
- التراكب أو التداخل أو التدرج الفراغي[٤]
- الذوبان أو السياحة الفراغية[٥] [٦،ص٨٧]



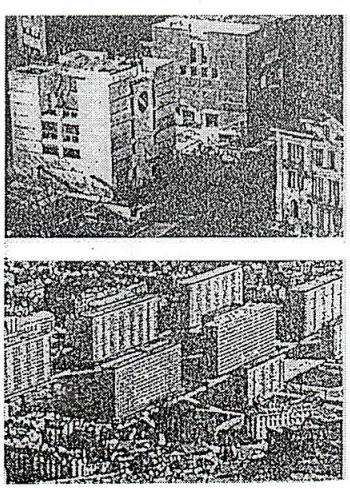
شكل ٣: النمط المدمج : مدينة القاهرة التاريخية.[٢٣]



شكل ٤: النمط المفتوح ، موقع عام.[٥]



شكل ٥: النمط المبعثر، موقع عام.[٥]



شكل ٦: النمط المفتوح ، تجمعات سكنية.[٥]

---

[٣] يقصد به فصل الفراغات المتجاورة عن بعضها البعض فصلا ماديا أو بصريا.

[٤] يقصد به تراكب أو تداخل أو تدرج الفراغات المتجاورة مع بعضها البعض ماديا أو بصريا.

[٥] يقصد به ذوبان الفراغات المتجاورة مع بعضها البعض مكونة فراغات مترابطة يتم إدراكها بصريا كأنها فراغ واحد.

بالقطع يوفر النمط العمراني المفتوح -في مقابل النمط المدمج- مزايا نوعية نسبية، مثل توفير المساحات الخضراء والفراغات المفتوحة الخارجية وسهولة إمداد المرافق والمواصلات العامة والخدمات كما يوفر نموا عمرانيا منتظما وسريعا ومتناسقا مع نمو الخدمات. [٥،ص٦٦]

كما يفقد النمط المفتوح بالمقابل المزايا النسبية التي يوفرها النمط المدمج، حيث محاور الحركة أقصر والكثافة البنائية أعلى، [٥،ص٦٤] مما يكون له مردود اقتصادي هام، ويتيح النمط المدمج حماية مناخية رائعة في بيئة قاسية - مثل بيئتنا الصحراوية- كما يتيح تعدد وتراكب الأنشطة والوظائف واستعمالات الأراضي على مستوى المراكز الخدمية العامة (سواء شريطية أو نقطية).

فالنمط العمراني المتعدد الأنشطة والوظائف لا يتيح -في مقابل النمط العمراني الأحادي الأنشطة والوظائف- استثمارا اقتصاديا أعلى للقيم الايجارية أو الشرائية للأراضي العمرانية [٧] فقط، بل يوفر نطاقا عمرانيا مأهولا بالسكان لفترات أطول زمنيا على مدار اليوم، مما يساهم في التواصل الاجتماعي والأمان النفسي لمرتادي وقاطني المكان، بسبب شغله لفترات أطول نسبيا. فحتى بعد إغلاق نشاط ما وانتهاء عمله يظل نشاط أو أنشطة أخرى بالعمل مما يكسب النطاق متعدد الأنشطة والوظائف حياة وحيوية لفترات زمنية أطول على مدار اليوم.

ولا يحقق النمط المفتوح مزاياه النظرية الموعودة في بيئة طبيعية مثل البيئة العربية، فالمسطحات الخضراء والحدائق العامة الواسعة الكبيرة المفتوحة لاتشكل عبئا اقتصاديا كبيرا على بناء وصيانة وإدارة المدن العربية -بسبب المناخ الحار القاسي وانتشار الصحراء والرمال وهبوب الرياح المحملة بالأتربة- فقط، بل تشكل فقرا في جماليات مطلاته أيضا، فلا يوجد منظر طبيعي جميل يطل عليه الفراغ المفتوح، مما لا يوفر بيئة مناسبة للجلوس والتمتع في أغلب أوقات النهار وأغلب فترات العام.

وكما تشكل الفراغات المفتوحة الكبيرة عبئا حراريا ومناخيا [٨] على المارة والمشاة داخلها، (حيث أصبح الكثير من مدننا العربية الحديثة يخلو تقريبا من التواجد الإنساني في فترات الظهيرة) تشكل نفس العبء -وربما أكبر- على أجهزة التكييف الميكانيكي للمنشآت المعمارية [٩] المعرضة باستمرار من جميع الجهات لأشعة الشمس الحارقة.[٦] فينعكس على ارتفاع معدلات استهلاك الطاقة الكهربائية وعلى التلوث السمعي والبيئي والبصري بوضوح.

تأثير التشكيل الفراغي على التشكيل المادي للبيئة العمرانية

يلعب التشكيل الفراغي دائما دورا معاكسا أو مضادا للتشكيل المادي للنسيج العمراني، فلفصل الفراغات العمرانية عن بعضها البعض يجب وصل عناصر المكون المادي للنسيج العمراني ببعض والعكس صحيح. ولا يمكن الوصول إلى التدرج الفراغي بدون اتصال أو ارتباط مادي للعناصر المعمارية بدرجاته المختلفة.

وتلعب الفتحات العمرانية مثل المعابر والقناطر والسقيفات والتي تصل ما بين مبنيين على جانبي الشارع وتغطي فراغ الشارع، دورا واضحا في تشكيل أو تفتيت المكون الفراغي للشارع إلى أجزاء أو نطاقات فراغية أو فراغات

---

[٦] بالرغم من تعدد الدراسات والأبحاث التي تناقش أهمية وقيمة الحماية المناخية للمنشاءات المعمارية والفراغات العمرانية [٨]، [٩]، إلا أن طوفان المسلمات المعمارية والعمرانية الأوروبية لازال طاغيا على مفكرينا ومعمارينا ومخططي مدننا العربية.

أصغر. وبذلك يتكون نتيجة لفصل الفراغات عن بعض- اتصالا ماديا مضافا إلى النمط العمراني المدمج والعكس صحيح.

القيم الاجتماعية والسياسية لأنماط التشكيل العمراني

ولكن كيف تتأثر أو تؤثر الأنماط الفراغية في القيم الحياتية للمجتمع؟ "يمثل النمط العمراني المفتوح أسلوبا جديدا للحياة يدور في فلك الحريات الشخصية الانعزالية عالية الدرجة وكذا الانفصال الفردي والاستقلال عن الإطار العام والمشترك والذي ينتج عن عزل السكان والأبنية التي تحويهم، متأثرا بالانعكاسات النمطية للتكنولوجيا الحديثة والتي تشكل العناصر المعمارية نمطيا بشكل تكراري كمجموعات منعزلة عن بعضها البعض بدون ترابط عمراني." [١٠،ص٩،١٠] وكل هذا لصالح تزايد أهمية المصالح الفردية المقدمة على حساب المصالح المشتركة للحياة الجماعية. بينما يوفر النمط العمراني المدمج الفرصة للمجتمع في تقديم مصالحه المشتركة والعامة وفي توفير البيئة المناسبة للتضامن الجماعي والعمل الاجتماعي المشترك لمجتمع المدينة ككل على مصالح الفرد، يتيح أيضا الحصول على درجات مختلفة من الانعزال الفردي. [١٠]

وقد واجه نابليون بونابرت المشكلات السياسية للنمط العمراني المدمج أثناء حملته العسكرية على مصر ١٧٩٨-١٨٠٢م، عندما لاقى صعوبة كبيرة في قمع ثورتي القاهرة ضده -بالرغم من فرق الإمكانيات العسكرية والعتاد الحربي- ليس بسبب تضامن أهل القاهرة وتعبئتهم سياسيا من قبل شيوخ وأئمة الأزهر الشريف فقط، بل بسبب نسيجها العمراني المدمج أيضا، والذي ساهم بشدة إدماجه، في إعاقة القدرات العسكرية المتفوقة للفرنسيس. فكان من نتائج الثورتين أن قام الفرنسيس بتدمير بوابات الحارات وشق مجموعة من الشوارع المستقيمة بحجة توفير الاشتراطات الصحية العامة، ولكنهم في واقع الأمر كانوا يوفرون لمدافعهم الشوارع المستقيمة والفراغات المفتوحة للحركة والضرب، [١١] مما يوفر القدرة على اختراق المدينة أمنيا عند الضرورة لضرب المتظاهرين ومتاريسهم الشعبية.

فتشكيل الفراغات العمرانية إذن هو نتيجة للتعبير عن مجموعة من القيم الاجتماعية والسياسية والثقافية ... إلخ والتي تعمل غالبا كمنظومة متكاملة لعدة نتائج منها:

- التعبير عن قيم ونمط أو أسلوب حياة معين[٧] "Way of life"
- التعبير عن أفكار جمالية وفراغية يتم تشكيلها بأسلوب واع أو غير واع[٨،٤،ص٥]

---

[٧] فإذا كان أسلوب الحياة لمجتمع ما فرديا مثلا فيكون تشكيل الفراغات العمرانية انعكاسا منطقيا إذا تم فصل العناصر المعمارية فصلا ماديا على شكل جزر معمارية يحيط بها الفراغات المفتوحة من كل جانب والعكس صحيح.

[٨] فحيث أن كل مجتمع قد يتميز بمعايير أو قيما جمالية تختلف عن المجتمعات الأخرى (أو حتى قد ينقسم المجتمع إلى طوائف بها بعض الاختلافات في القيم الجمالية الخاصة) يسعى كل مجتمع إلى التعبير عن رموزه الجمالية باستخدام أدوات ومناهج وأساليب تشكيل جمالي قد تختلف عن الآخرين فنجد أن تشكيل الفراغات العامة لمدينة جدة وساحلها بالمملكة العربية السعودية مثلا قد تجنب التشخيص والشخوص واتجه نحو التجريد ونحو الرموز القرآنية ومدلولاتها الاجتماعية والجمالية متأثرا بالمفاهيم الثقافية والدينية التي تميزه عن غيره من المجتمعات.

- التعبير عن أنشطة واستعمالات ووظـــائف مختلفـــة[٩]
- لمجموعة من القواعد واللوائح والقوانين العمرانيـــة والمعماريـــة[١٠]
- للتعبير عن توجه سياسي مـــا[١١][٤،ص٥]

أهمية الجماعة للمجتمع المسلم

ولكن أي من النمطين العمرانيين يمكن أن يتوافق بصورة أفضل مع خصـــائص المجتمـــع المســـلم واحتياجاتـــه؟ ويســـاهم في تحقيق مختلف صور تنميته الحضاريـــة؟

يولى الإسلام اهتماما خاصا بالجماعة مقابل الفرد، حيث يشجع كل عمـــل يقـــوم ويـــؤدى عـــن طريـــق الجماعـــة في مقابل كل عمل يؤدى فرديا. فتشجيع الإسلام للعمل الجماعي لا ينحصر بـــالطبع في الشـــعائر الدينيـــة فقـــط، حيـــث يقول رسول الله ﷺ : "صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفرد بخمـــس وعشـــرين درجـــة وفي روايـــة بســـبع وعشـــرين درجة" متفق عليه، بـــل يتعـــداه إلى جميـــع المواقـــف الحياتيـــة الأخـــرى فيقـــول الله ﷻ ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾ [آل عمـــران ١٠٣]

وينهى رسول الله ﷺ عن التفتت والانفصال والتشرذم فيقول: "مامن ثلاثة في قريـــة أو بلـــد لاتقـــام فيـــهم الصـــلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان فعليك بالجماعة فإن الذئب يأكل القاصية" رواه أبـــو الـــدرداء وأخرجـــه أبـــو داود.

فأهمية الجماعة والترابط الاجتماعي لا تنحصـــر فوائدهـــا في مواجهـــة الشـــدائد والمحـــن (مثـــل ثـــورة القـــاهرة ضـــد بونابرت) ولا في المشاركة في الأفراح والأعياد العامة فقط، بل تتعداه إلى تفعيل وتنشـــيط العمـــل الجمـــاعي والتواصـــل الاجتماعي والذي يراه الدين الإسلامي ضروريا وحيويا وأساسيا للمجتمع المسلم فينعكـــس إيجابيـــا بـــدوره عـــن تقـــدم حضاري حقيقي متمـــيز.

وقد انعكس الترابط الاجتماعي والجمـــاعي للمجتمعـــات المســـلمة الســـابقة في تشـــكيل الأنمـــاط العمرانيـــة للمـــدن الإسلامية التاريخية، فتجاورت المباني السكنية والخدمية والدينية والعامـــة ...الخ، كالبنيـــان المرصـــوص موفـــرة الحمايـــة

---

[٩] فقد يختلف تشكيل الفراغات الإدارية والتجارية عن تشكيل الفراغات السكنية مثـــلا فبينمـــا يـــهدف التشـــكيل الفراغـــي للمنـــاطق الســـكنية إلى إتاحـــة الخصوصيـــة والراحة والهدوء المطلوبين لسكانها والأمان لأطفالهم وشيوخهم، يهدف تشكيل الفراغات الإداريـــة والتجاريـــة إلى تشـــجيع التجمعـــات العامـــة للجمـــهور وإلى جـــذب القطاعات المختلفة من الجمهور لممارسة الأنشطة داخلها بحرية (ويمكن اعتبار ساحة روكفلر بنيويـــورك مثـــالا واضحـــا علـــى ذلـــك).

[١٠] بالطبع تلعب القوانين واللوائح العمرانية والمعمارية دورا هاما في توجيه التشكيل العمراني والمعماري عـــن طريـــق تحديـــد نســـب للبنـــاء أو أحجـــام الكتـــل المعماريـــة وعروضا للشـــوارع ...إلخ.

[١١] وفي النهاية يؤثر التوجه السياسي في تشكيل الفراغات العمرانية حيث قـــد تســـود الأنمـــاط الفراغيـــة والمعماريـــة الصرحيـــة Monumental مثـــلا مـــع النظـــم السياسية الأتوقراطية وأوضح مثال على ذلك تصميم الساحات العامة بمدينة نورنبرج بألمانيا في عصـــر النـــازي وأدولـــف هتلـــر، بينمـــا تســـعى النظـــم الديموقراطيـــة إلى إتاحة الفرصة لأفراد المجتمع للمشاركة في تقييم وتصميم فراغاتهم العمرانية مما قد يساهم في جعـــل هـــذه الفراغـــات أكـــثر إنســـانية.

المناخية لبعضها البعض، وتلاحمت الأنشطة الجماعية والاقتصادية موفرة الترابط الاقتصادي والوظيفي والمعنوي للبيئة العمرانية، فلنغرس المسجد في النسيج العمراني موفرا خدماته المتكاملة للمجتمع المسلم في مقابل الحماية المناخية والأمنية والدعم البشرى والاجتماعي التي توفرها له البيئة العمرانية المحيطة.

ولكن هل يعنى إنغراس المسجد داخل بيئته العمرانية المحيطة فقدانه لشخصيته البصرية المعمارية والعمرانية والتي يجب أن تتوفر له؟ أم يعنى اندماج المسجد داخل النسيج العمراني فقدانه أي شكل من أشكال التميز البصري المعماري أو العمراني، فأصبح من الصعب تمييزه عما جاوره من أبنية معمارية؟

التشكيل البصري للمساجد

لتفهم منهجية التشكيل البصري للمسجد داخل البيئة العمرانية يجب أولا تحديد أنماط التأثير البصري للكتلة المعمارية.

هناك أربعة أشكال للتأثير البصري للكتل المعمارية (مرتبة تنازليا):

- الهيمنة البصرية[١٢]
- السيطرة البصرية[١٣]
- التميز البصري[١٤]
- الاندماج البصري[١٥] [٦، ص٧٢]، [١٢، ص٣٥٠]

فبينما تراوحت الكنيسة والكاتدرائية الأوروبية في العصور الوسطى بين الدرجتين الأعلى للسيطرة والهيمنة (بالترتيب)، راوحت المساجد حول درجة التميز البصري أساسا، وحول درجة السيطرة البصرية بشكل ثانوي ومرتبط غالبا بفترات ضعف الأمة الإسلامية سياسيا واجتماعيا، عندما سيطرت السلطة الأوتوقراطية لحاكم أو سلطان على المجتمع.

وقد نتجت الهيمنة البصرية للكاتدرائيات والسيطرة البصرية للكنائس في أول الأمر نتيجة لمفهوم ديني أصبحت فيه الكنيسة والكاتدرائية ممثلا للسماء في الأرض، فيصبح وجودها بذلك ضروريا وجوهريا في الحياة الدنيا للحفاظ على مثاليات المجتمع السماوي الفاضل، ولكنها في نفس الوقت يجب عليها رهبانية وقدسية مبتدعة فتنفصل بذلك عن المجتمع الشهواني، وعن ماديات الحياة الدنيا وإغراءاتها، وبالتالي عن المجتمع المادي الغرائزي المحيط بها،

---

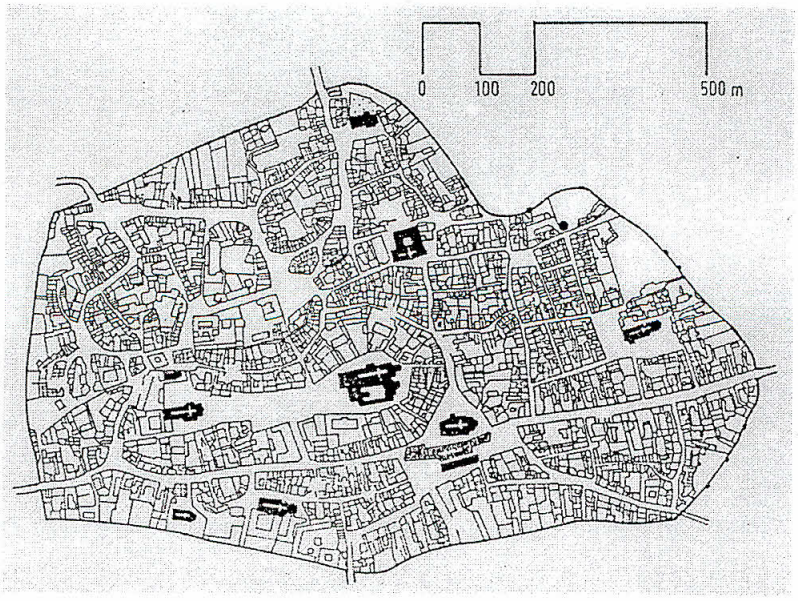
[١٢] الهيمنة تعنى استيلاء مبنى معماري أو فراغ عمراني بصريا على محيطه الفراغي والعمراني والمدينة كلها.

[١٣] السيطرة تعنى درجة أقل من الهيمنة بصريا، فهي أخف تأثيرا ووطأة، حيث لا يتعدى التأثير البصري للمبنى أو للفراغ العمراني النطاق العمراني المباشر والمحيط بالعنصر نفسه.

[١٤] التميز هو حصول مبنى أو فراغ على صفات بصرية ذات رسائل محددة، تفيد في التعرف عليه بصريا وتميزه عما جاوره من فراغات أو عناصر.

[١٥] الاندماج البصري هو تأثير بصري يؤدى إلى فقد المبنى أو الفراغ لشخصيته البصرية الخاصة والفردية وذوبانه تماما في الوسط العمراني والفراغي المحيط، مكونا في النهاية مع المجموعة المحيطة والمجاورة له علاقة تشكيلية واحدة غير قابلة للانفصال أو التفتيت.

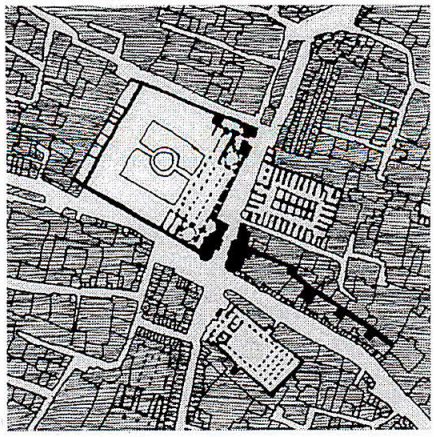
فانفصالها يعني طهارتها، وتميز رجالها وتعاليهم عن الاحتياجات الدنيوية كسائر البشر، فتقع في القلب والعمق المهيمن على المفاهيم الفكرية للدولة والمجتمع ومنتجيه الحضاريين: العمارة والعمران. [١٣،ص٣٤] (ويوضح شكل ٧ أحد مدن العصور الوسطى بأوروبا وموقع الكنائس والكاتدرائيات منها).



شكل ٧: مدينة عصور وسطى بأوروبا. [١٤]

في المقابل لعب المسجد دورا هاما في حياة المجتمع المسلم، ولكنه غير مسيطر أو مهيمن، فهو لا يمثل مجتمعا سماويا فاضلا منفصلا ولا يحاول صباغة رجال الدين برهبانية مبتدعة متفوقة على سائر البشر، بل يشجع على إعمار الأرض والعمل فيقول الله ﷻ: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون﴾[سورة الجمعة، آية ١٠] فلا يصبح وجود المسجد جوهريا بسبب رجاله العاملين في خدمة الرب، ولا يصبح تواجده ضروريا بسبب إقامته للصلوات الخمس، بل هو وجود ضروري لتعدد خدماته وأنشطته مع بقاء العاملين به بصفتهم الإنسانية القابلة للمراجعة والاحتواء أو التقويم من المجتمع المسلم، فهذا الوجود لا يتحول بأي حال من الأحوال إلى هيمنة سماوية على سائر البشر.

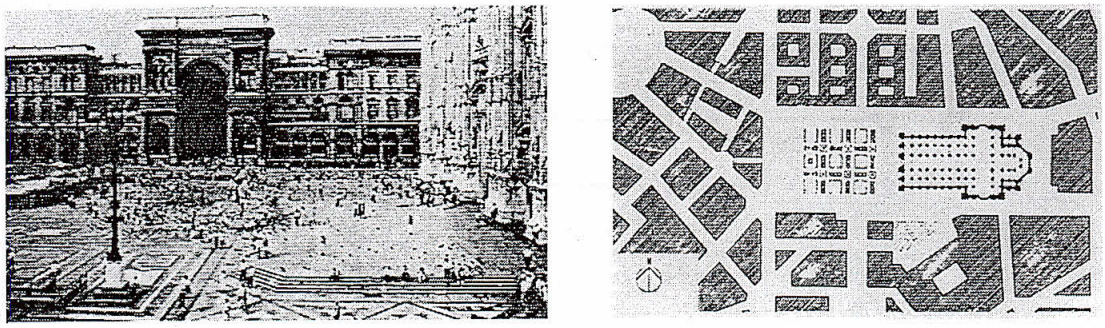
فبينما انغرس المسجد في بيئته العمرانية كالأظفر متيحا للمجتمع المسلم عنصر خدمات مركزي متعدد المهام أو الوظائف والأنشطة -بدون تعال وظيفي أو معماري- محيطا نفسه بالأنشطة الاقتصادية الممثلة في الشوارع التجارية والمحلات والورش الحرفية والوكالات ...الخ، متناغما مع البيئة العمرانية متناسقا معها ماديا ومعنويا، سامحا لهذه العناصر الاقتصادية بإحاطته لتفعيل استثماري أفضل للموقع، تاركا مهمة رقابة الحياة العامة والأنشطة التجارية لأفراد المجتمع -لتشجيع الرقابة الذاتية- متفرغا لتنمية المجتمع حضاريا (شكل ٨ يمثل نموذجا نمطيا لهذا الاندماج).



شكل ٨: ترابط التكوين المعماري والعمراني، مسجد المؤيد، القاهرة. [٢٢]

أخذت الكنيسة والكاتدرائية الأوروبية على عاتقها مهمة الرقابة والإشراف على الأعمال التجارية والمالية، فاحتلت موقعا مهيمنا على ساحة السوق (الساحة العامة للمدينة) [١٤،ص٤٥] مهيمنة على بروفيل المدينة أو مسيطرة على نسيجها العمراني معبرة عن سيطرتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية -وليس الدينية فقط بل على مجتمع المدينة ومنتجها الحضاري كله (شكل٩ يمثل نموذجا نمطيا لهيمنة الكنيسة على ساحة السوق بأحد مدن العصور الوسطى بإيطاليا). وقد نما الاتجاه الانعزالي للكنائس والكاتدرائيات الأوروبية في عصر النهضة -وما بعدها- فأصبحت الكنائس تتوسط الساحات المركزية للمدينة منعزلة أكثر عن نسيجها العمراني.

وتحول هذا الانعزال من كونه نمطا عمرانيا مميزا للكنائس والكاتدرائيات فقط إلى أن يكون نمطا عمرانيا لجميع المباني الهامة والتذكارية والحكومية، مثل مباني الأوبرا والمتاحف والبرلمان ...الخ، ثم نمطا عمرانيا عاما، وبذلك سيطر النمط العمراني المفتوح أو المتناثر على مسلمات الفكر المعماري والعمراني الأوروبي.



شكل ٩: هيمنة الكنيسة الأوروبية على الساحة العامة. [٤]

ورغم المحاولات الجادة لإيقاف هذا التوجه عمرانيا وجماليا وعمليا [١٥،ص٣٣] إلا أن تسارع خطوات المجتمع الأوروبي نحو التحرر من جميع القيود-كرد فعل للسيطرة الطاغية والأوتوقراطية لرجال الدين، متخليا عن كل ما يسيطر على حرياته الفردية، ناظرا لكل القواعد والتقاليد الاجتماعية والدين كعائق عن التقدم والحرية الفكرية، متبنيا أسلوبا جديدا للحياة، لم يساهم في تأكيد عزل الكنيسة الأوروبية عن بيئتها العمرانية الرافضة لها فقط، بل

في تفتيت وانفصال النسيج العمراني كله إلى جزر معمارية متباعدة ومعزولة عن بعضها البعض، مساهمة في إنتاج النمط العمراني المفتوح.

ومع استعمار الغرب للدول الإسلامية، أو استيراد الخبرة الأجنبية أثناء سعى الدول الإسلامية للتحرر أو التطور والنمو، تم استيراد هذه المسلمات المعمارية والعمرانية بدون الأخذ في الاعتبار الخلافات الجوهرية بين الغرب والعالم الإسلامي اجتماعيا وثقافيا ...الخ.

وبذلك نجد تعارضا واضحا في القيم الفكرية للنمط المفتوح أو المتناثر مع العمود الفقري للمجتمع الإسلامي ومحاور تطوره وقيمه الاجتماعية والحضارية، والتي تتركز في العمل الجماعي والترابط الاجتماعي، والتي وجهنا الله ورسوله ﷺ لها كعناصر مميزة للمجتمع المسلم، لكي ينجح في أداء دوره في تعمير الأرض ونشر الحضارة وفي تطوره كمجتمع، والتي وضحت من دراسة أهمية الجماعة للمجتمع المسلم. [١٦]

فبينما سعى المجتمع الأوروبي سعيا حثيثا لفصل الكنيسة، ولتشكيل كتلتها لتهيمن بصريا على الساحات العامة للمدينة وعلى بيئتها العمرانية، نجد أن المجتمع المسلم قام بتشكيل مساجده والفراغات العمرانية المحيطة بمنهاج مختلف تماما. ولكن كيف يمكن التعرف على خصائص هذا الاختلاف ليس فقط في المنهج ولكن في الصياغة التشكيلة أيضا؟ وهل يؤدى دراسة التشكيل الفراغي في علاقاته الفراغية الثلاثة إلى أن تتضح هذه الخصائص بصورة أفضل ؟

العلاقة الفراغية: الخارجية ـ الخارجية

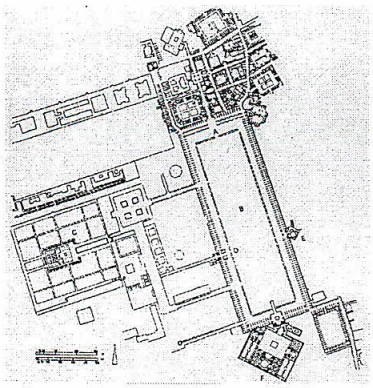
لم يؤثر اتجاه القبلة على تشكيل الفراغات الداخلية للمسجد فقط، بل ظهر تأثيره واضحا في التشكيل الفراغي للنسيج العمراني. فإن تأثير اختيار اتجاه القبلة لجامع الزيتونة بمدينة تونس التاريخية مثلاً انعكس على توجيه باقي المساجد بها. فعلى الرغم من أن توجيه جامع الزيتونة كان غير دقيق هندسيا -حيث تم توجيهه مائلا ٢٩درجة و١١دقيقة على الاتجاه الصحيح للقبلة- "إلا إن تأثير توجيه جامع الزيتونة سيطر على توجيه كل المباني الدينية والتي بنيت بعد ذلك." (في مدينة تونس التاريخية). [١٦،ص١٠٣]

وفي المقابل نرى في أصفهان بإيران مثالا كلاسيكيا مضادا لتأثير اتجاه القبلة على شكل المسقط الأفقي للنسيج العمراني، فقد صمم مسجد الشاة (١٦١٢-١٦٣٠م) حسب التوجيه الصحيح للقبلة مما نتج انحراف المسجد عن محور الساحة المعروفة بميدان الشاة (شكل١٠)، وهى مستطيلة منتظمة الشكل (بنيت ١٥٩٧-١٦١١م) مشكلة تحديا عمرانيا ومعماريا تم حله ببراعة فائقة في نقاط الارتكاز بين الجامع والميدان (شكل١١).

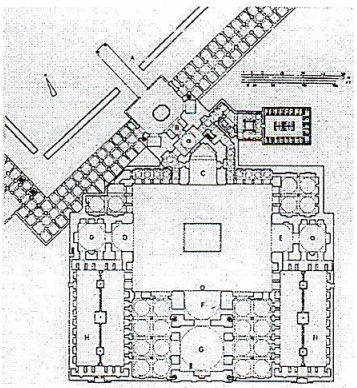
لذلك فإنه من الأهمية بمكان أن نلاحظ أنه بالرغم من أن التحديد الدقيق لاتجاه القبلة هام جدا، إلا أنه بمجرد أن يتم تحديد اتجاه القبلة لمسجد جامع -يتم بناؤه قبل تشكيل البيئة العمرانية المحيطة، فإن تأثيره يتعدى الدقة الهندسية، مؤثرا في كل محيطه العمراني والمعماري. [١٦،ص١٠٣]

---

[١٦] راجع أهمية الجماعة للمجتمع المسلم ص٦

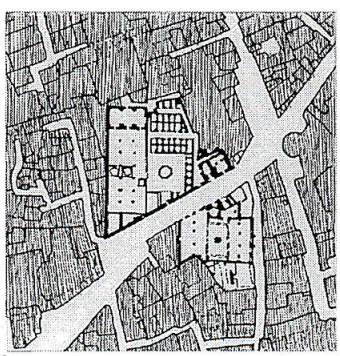


شكل ١٠: النطاق العمراني : ميدان الشاه. [٢٤]

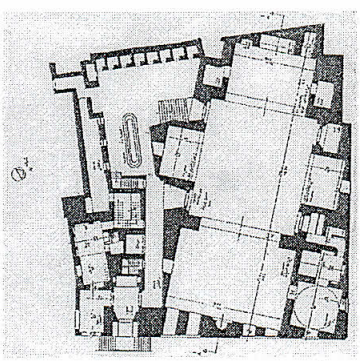


شكل ١١: مسجد الشاه، ونقاط الارتكاز مع الميدان. [٢٤]

ويكون احترام وتأكيد التوجيه الفراغي للشارع، عن طريق بناء الواجهات الخارجية للمسجد على حد الملكية ومواز للشارع مما يحافظ على البناء الفراغي للشارع (شكل١٢، ١٣) يمثلان في المقابل نماذج نمطية لحفاظ واحترام المسجد للتشكيل الفراغي للشارع مع صرامة توجيه الفراغات الداخلية للقبلة، من المعايير التصميميه التي يتم مراعاتها بدقة وصرامة شديدين عندما يتم بناء المسجد الجامع لاحقا لبناء البيئة العمرانية المحيطة، مما يؤكد احترام المسجد لتلك البيئة العمرانية وعدم الاعتداء عليها.



شكل ١٢: احترام التوجيه الفراغي للشارع. [٢٢]



شكل ١٣: احترام توجيه القبلة وانتظام الفراغات الداخلية. [٣]

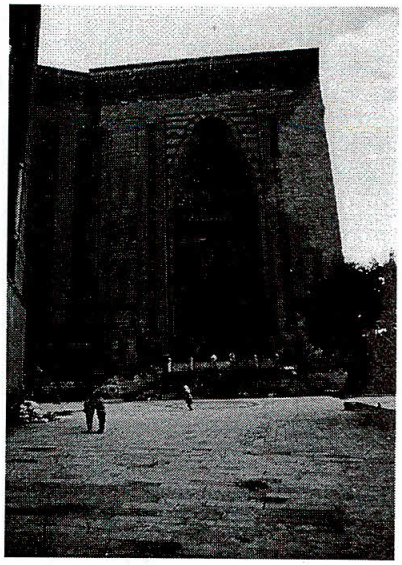
العلاقة الفراغية: الفراغات الخارجية–الداخلية

ولكن هل يؤثر تشكيل العلاقة الفراغية بين الخارج والداخل على ارتباط أو انفصال المبنى عن البيئة العمرانية المحيطة ؟

بالطبع فكما يؤثر تشكيل الفراغات الخارجية بعلاقتها مع بعض في تشكيل الكتل المعمارية "... يلعب النطاق الفراغي أمام المداخل والفتحات المعمارية دورا مؤثرا في الإدراك البصري للعلاقات الفراغية وأنماط تشكيلها ماديا وفراغيا أيضا." [١٠،ص١٣١]

تتميز المفاهيم التشكيلية للعلاقة الفراغية بين الفراغات الخارجية والداخلية لأغلب المساجد التاريخية الجامعة بالفصل التام والواضح، عن طريق فراغين أساسيين: ردود المدخل ودركات المدخل.

لعب المدخل دورا متميزا في تشكيل العلاقة الفراغية الخارجية-الداخلية، فقد أثر القرار التصميمي بفصل الفراغات الخارجية عن الداخلية وفي نفس الوقت الرغبة في الترحيب بالزائرين وتدرج العلاقة بين الخارج المفتوح والداخل المغلق، في إنتاج نمط تشكيلي مميز للمساجد. فأقيم المدخل على شكل دخول متراجع لا على شكل بروز.[١٧] وصمم الدخول المتراجع بشكل سامق وبارتفاع واجهة المبنى كله ليرمز بصريا للترحيب بالزائر، ويؤهله نفسيا إلى الانتقال من الفراغ الخارجي المفتوح إلى الفراغ الداخلي المغلق (شكل١٤).[١٨]



شكل ١٤: مدخل جامع السلطان حسن بالقاهرة.

ويمثل ردود المدخل فراغا خارجيا-داخليا،[١٩] حيث تتدرج تغطيته من الخارج الواسع المرتفع إلى الداخل الأقل ارتفاعا والأضيق فراغيا، ويقع على جانبي الردود مصطبتين غير قليلتي الارتفاع قد تستعملان للجلوس (شكل١٥)، وتساهمان في التهيئة البصرية للاحتواء، وتلعب مجموعة المقرنصات التي تعلوا المدخل في تكوين عام ربع كروي في التمهيد الفراغي رأسيا من الفراغ الخارجي المرتفع السماوي السقف المفتوح إلى الفراغ الداخلي ودركات المدخل (شكل ١٦).

وبذلك يقوم ردود المدخل بتدرجه الفراغي بين الخارج والداخل بالتهيئة النفسية للاحتواء الفراغي الداخلي التام.

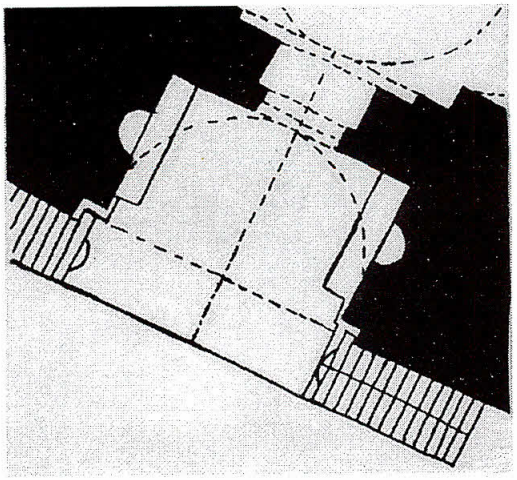
وقد أضيف فراغٌ متوسطٌ بين الخارج والداخل ليفصل بينهما على شكل دركات المدخل.

---

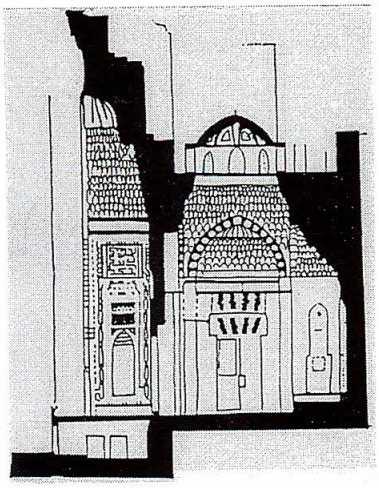
[١٧] بورتريكو العمارة الأوروبية

[١٨] تمثل الأشكال ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، نماذجا نوعية في لغتها التصميمية وليس من الضروري في صياغتها التشكيلية.

[١٩] شبه خارجي أو شبه داخلي



شكل ١٥: ردود المدخل، مسقط أفقي،جامع السلطان حسن.



شكل ١٦: ردود ودركات المدخل: قطاع في الجامع [٣]

ودركات المدخل يتم تشكيلها على هيئة مسقط أفقي مربع، متزن، استاتيكي التوجيه بصريا، في المستوى الأفقي، سامقا إلى أعلى، ديناميكي التوجيه بصريا، في المستوى الرأسي. وتأتى الدركات - غالبا- بارتفاع أعلى من ارتفاع بوابة المدخل، وقد تزيد في الارتفاع[٢٠] أو تتساوى مع ردود المدخل. ويقع على جانبي الدركات سدلات[٢١] بها مصاطب قد تستعمل في الجلوس والراحة. (شكل١٧). فتساهم بذلك في تأكيد الفصل الفراغي الواضح بين الخارج والداخل[٢٢]، وتلعب المفاهيم التصميميه للعلاقة الفراغية بين الخارج والداخل -في إطار التدرج للترحيب من جانب والفصل الفراغي من جانب أخر، للاستعداد لمنظومة فراغية داخلية جديدة- الدور الأساسي والهام في تشكيل مفردات اللغة التصميميه والتشكيلية لمنطقة المدخل بالمسجد. ويساهم التوالد الفراغي للسدلات والمصاطب المبنية في تفتيت أثار ضخامة الفراغ التذكاري للمسجد بهدف الوصول إلى فراغات أكثر إنسانية.

التشكيل الفراغي للمسجد أو العلاقة الفراغية: الفراغات الداخلية-الداخلية

ولا تتوقف أو تنتهي محاولات التأكيد على الفصل الفراغي بين الخارج والداخل في دركات المدخل، بل غالبا ما تستمر وتتصاعد بالممر المنكسر الذي يصل بين دركات المدخل وصحن المسجد[٢٣] (شكل١٨)، فيلعب الممر المنكسر دورا هاما في التمهيد النفسي والبصري للمفاجأة الأساسية لفراغ صحن المسجد، وكذلك في المساهمة في

---

٢٠ المساجد الجامعة الإيرانية

٢١ أيونات قليلة العمق

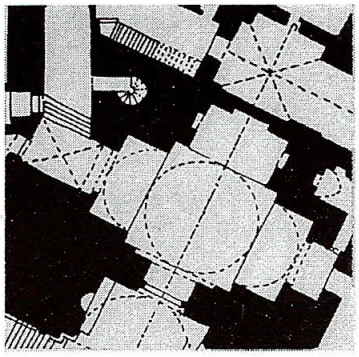
٢٢ وإذ يحاول الكثير من الباحثين التأكيد على الوظيفة الاجتماعية للمدخل المنكسر في عمارة المنازل الإسلامية بهدف الحفاظ على الخصوصية البصرية والاجتماعية لفناء المنزل، لا نجد للممر المنكسر في المساجد أي سبب اجتماعي، فليس للفصل البصري لصحن المسجد عن المارة بالشارع أي قيمة اجتماعية، بالرغم من ذلك نجد الإصرار الواضح والمتكرر في اعتماد المفهوم التصميمى للمدخل المنكسر كأحد المفردات اللغوية للتشكيل الفراغي لمداخل المساجد فلابد أن للممر المنكسر أهدافا أكثر شمولية من مجرد توفير الخصوصية الاجتماعية.

٢٣ وإذ يحاول الكثير من الباحثين التأكيد على الوظيفة الاجتماعية للمدخل المنكسر في عمارة المنازل الإسلامية بهدف الحفاظ على الخصوصية البصرية والاجتماعية لفناء المنزل، لا نجد للممر المنكسر في المساجد أي سبب اجتماعي، فليس للفصل البصري لصحن المسجد عن المارة بالشارع أي قيمة اجتماعية، بالرغم من ذلك نجد الإصرار الواضح والمتكرر في اعتماد المفهوم التصميمى للمدخل المنكسر كأحد المفردات اللغوية للتشكيل الفراغي لمداخل المساجد فلابد أن للممر المنكسر أهدافا أكثر شمولية من مجرد توفير الخصوصية الاجتماعية.

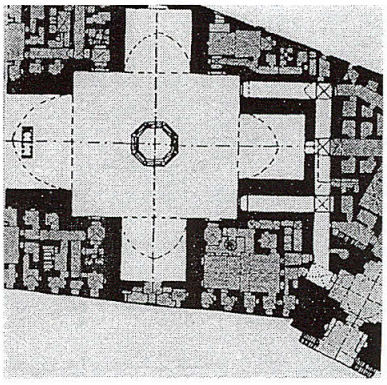
العزل الصوتي وزيادة التأكيد على الفصل الفراغي بين الخارج والداخل، مما ينتج عنه متابعة بصرية وفراغية تهدف للرفع من شأن القيمة البصرية والفراغية -نفسيا- لصحن المسجد لما وراء قيمته الهندسية المباشرة، وكذا توفير المناخ الموضعي الملائم والبيئة المناسبة للاسترخاء والهدوء والتدبر في أمور الدين والدنيا. وبذلك تكتمل الصورة التشكيلية بين الخارج غير المنتظم والداخل شديد الصرامة في الانتظام حيث يعبر عنها بنفولو بقوله: [١٨، ص٢٩٥]

"... في مقابل الأشكال غير المنتظمة لفراغات الشوارع والأحياء السكنية، تتباين أشكال صحون المساجد الواسعة المنتظمة في علاقة جمالية باهرة رائعة." (ويمثل شكل ١٩ نموذجا رائعا لهذه العلاقة الجمالية).

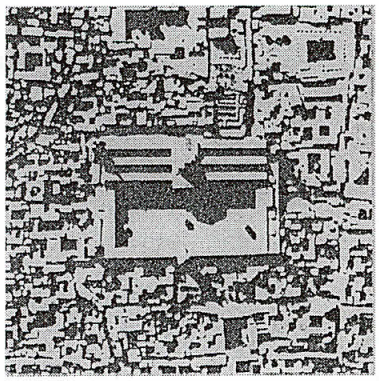
لم تكن صحون المساجد الجامعة التاريخية أكبر فراغ عام مفتوح داخل المدينة فقط، مما أدى إلى إضفاء إحساس غامر بالتباين الفراغي بين الفراغات الخارجية الضيقة المتعرجة غير المنتظمة، والمليئة بالحياة والمحيطة بالمسجد من جانب، وفناء المسجد المتسع المنتظم البسيط التشكيل، الهادئ من جانب أخر، بل كانت فراغات المساجد كلها تلعب نفس الدور في إثراء الإمتاع البصري من خلال الانتقال بين الفراغات الداخلية ذات التشكيل والتكوين شديد الانتظام والوضوح، والتي يجب أن تكون جميع فراغاتها الرئيسية صارمة الانتظام هندسيا وتتبع التوجيه الوظيفي بدقة. (ويوضح شكل ٢٠ نموذجا لمثل هذه الصرامة الهندسية، راجع أيضا أشكال ١١، ١٢، ١٣).



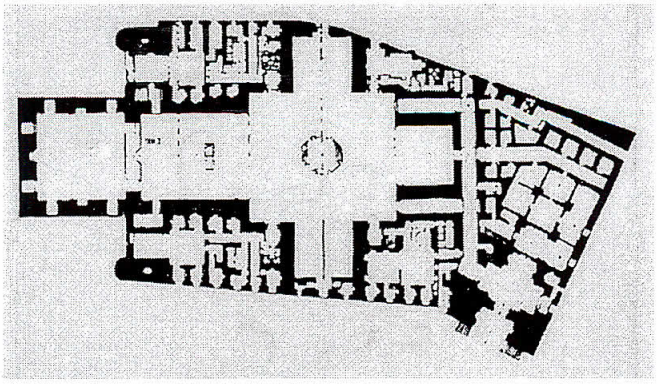
شكل ١٧: دركات المدخل والتوالد الفراغي لجامع السلطان حسن.



شكل ١٨: الممر المنكسر وصحن جامع السلطان حسن بإيواناته الأربعة. [٢٥]



شكل ١٩: المسجد الأموي ومدينة دمشق التاريخية



شكل ٢٠: جامع السلطان حسن ، مسقط أفقي، الانتظام الصارم في تشكيل الفراغات الداخلية. [٣]

الخلاصة

لا يلعب التشكيل الفراغي للبيئة العمرانية دورا هاما في حماية عناصرها المعمارية من عوامل البيئة الطبيعية، ولا في تفعيل دور مفرداته اقتصاديا ووظيفيا فقط، بل في زيادة انتماء الفرد للمجتمع والمكان أيضا. فيكون التوجه الفكري لعزل المسجد عن بيئته العمرانية هو توجه مضاد لمصالح تنمية المجتمع المسلم حضاريا، حيث لا يفقد المسجد بذلك ترابطه المادي والعمراني مع بيئته العمرانية المحيطة فقط، بل يفقد ترابطه ودوره الهام والفعال في التنمية الحضارية للمجتمع المسلم المعاصر. مما يدعونا إلى إعادة النظر في مسلماتنا المعمارية والعمرانية بخصوص الأنماط العمرانية الفراغية وأساليب ومناهج التشكيل الفراغي لبيئتنا العمرانية بعلاقاتها التشكيلية المختلفة،فلا يفقد النمط المفتوح في مقابل النمط المغلق أغلب مزاياه النفعية والجمالية في بيئات مثل بيئتنا العربية فقط، ولكن يؤدى أيضا إلى أن يفقد المجتمع المسلم جميع مقوماته الأساسية في ترابطه الجماعي والاجتماعي والذي لعب الدور الأساسي والجوهري في العصور التاريخية في بناء الحضارة الإسلامية وتميزها،وبذلك يتيح إعادة تفعيل دور المسجد في بيئته العمرانية –عن طريق إعادة إحياء دوره الفعال الوظيفي (المتعدد الأنشطة) والعمراني– إعادة لتفعيل دور الجماعة في مقابل الفرد، مع تقصير مسافات السير وتركيز الخدمات وتعددها على مستوى استعمالات الأراضي وتكوين بيئة عمرانية مناسبة للأنشطة الإنسانية مناخيا وثقافيا حول المسجد، مما يكون له عظيم الأثر اقتصاديا بنفس القدر مع المردودات الاجتماعية والحضارية الأعمق والأهم. فاعتبار النمط المفتوح نمطا مثاليا –بعد أن أصبح يستخدم بكثرة في مدننا وأصبح من المسلمات العمرانية لمخططينا وتتبناه جميع اللوائح والقوانين العمرانية المختلفة والمنظمة لتشكيل المدن العربية والإسلامية المعاصرة– أصبح مشكوكا فيه، وازدحام المدن الكبيرة الحديثة ومشاكلها المرورية المزمنة أو الدائمة والتي تتبع أنماطا مفتوحة خير دليل على ذلك. فالعودة إلى أتباع النمط العمراني المدمج في تخطيط مدننا، بالإضافة إلى إعادة دمج المسجد داخل النسيج العمراني المحيط، قد يساهم في زيادة علاقة المسجد ببيئته العمرانية، مما قد ينعكس إيجابيا على تقوية وإذكاء وتنمية ارتباطه الوظيفي والمعنوي بالمجتمع المسلم. إن الواقع يؤكد بغض النظر عن وجهات النظر المعمارية والعمرانية المختلفة والمتباينة أحيانا أن هذا الانعزال عن البيئة العمرانية ساهم وسيساهم بالتأكيد في إضعاف التواصل والترابط البشرى مع المسجد، حتى في

الصلاة، فكلما زاد انعزال المسجد عن البيئة العمرانية كلما لعب المناخ على الأقل دورا حيويا في المساهمة في تجميد المسلمين للصلاة في أماكن إقامتهم أو أعمالهم بدلا من الارتحال إلى المساجد، فهل يترك هذا التوجه ماضيا في سبيله ؟

المراجع

[١] ماهر، سعاد. *مساجد القاهرة وأولياؤها الصالحون*. القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٧١.

[٢] فكرى، أحمد. *مساجد القاهرة ومدارسها*، ج٢، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٩.

[٣] Organization of Islamic Capitals and Cities .*Principles of Architectural Design and Urban Planning During Different Islamic Eras*, Jeddah: Organization of Islamic Capitals and Cities, 1992.

[٤] Inst. of. Staedtebau, Raumplanung & Raumordnung. *Urban Spaces*, Vienna: Tech. Uni., 1992.

[٥] Huber, Benedikt .*Staedtebau–Raumplanung*, Zurich: Verlage der ORL Inst., 1989.

[٦] Saad, Sadek A. S . *Die visuellen & aesthetischen Faktoren, die die Gestaltung der staedtischen Raeume beeinflussen, am Beispiel von Kairo*, Vienna: Ph.D. Thesis, Tech. Uni., 1994.

[٧] Abu El-Enin, Alaa Galal .*Die Funktionsmischung als Instrument der Stadtteilplanung gezeigt an ausgewaelten Beispielen der Stadt Kairo*, Vienna: Ph.D., Thesis, Tech. Uni., 1992.

[٨] سالم، رماح إبراهيم. *تصميم الفراغات العمرانية في المناطق الحارة*. القاهرة: رسالة ماجستير، ١٩٨٤.

[٩] حسنى، سمير بيومي. *المناخ والعمارة*، القاهرة: دار المعارف.

[١٠] Curran ،Raymond .*Architecture and the Urban Experience*, New York: Van Nostrand Reinhold, 1983.

[١١] كشك، محمد جلال. *... ودخلت الخيل الأزهر*. القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٨.

[١٢] Ching, Francis D. K .*Architecture, Form, Space and Order* .New York: Van Nostrand, Reinhold, 1979.

[١٣] Bianca, Stefano .*Staedtebau in Islamischen Laendern* .Zurich: Inst. f. ORL, ETH, 1978.

[١٤] Grassnick, Martin a. o .*Stadtbaugeschichte von der Antik bis zur Neuzeit*. Braunschweig: Fried. Vieweg & Sohn Verlag, 1982.

[١٥] Sitte, Camillo .*Der Staedtebau nach seinen kuenstlerischen Grundsaetzen* .Vienna: Graesser, 1909.

[١٦] Hakim, Basim Selim .*Arabic-Islamic Cities, Building and Planning Principles*. London: KPI Press, 1986.

[١٧] Joedicke, Juergen .*Space and Form in Architecture*. Stuttgart: Karl Kraemer Press, 1985.

[١٨] Benevolo, Leonardo .*Die Geschichte der Stadt* .Frankfurt: Campus Verlag, 1991.

[١٩] القرآن الكريم.

[٢٠] السنة النبوية المطهرة.

[٢١] مجلة البناء. *جدة: التخطيط وفن العمارة*. الرياض: عدد (٢٥) السنة الخامسة، أكتوبر-نوفمبر ١٩٨٥.

[٢٢] Centre d'Etudes et de Documentation Economique et Juridiqu, CEDEJ. *La Construction du Tissu Urban.* Cairo: Dossier (4), 1985

[٢٣] الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨-١٨٠٢). *وصف مصر*، القاهرة: ترجمة الشايب، زهير، دار الشايب، ١٩٩٤.

[٢٤] Stierlin, Henri .*Encyclopedia of World Architecture.* London: the Macmillan Press, 1983.

[٢٥] معهد إنماء المدن والعواصم العربية، ١٩٨١. *المدينة العربية*. الرياض: معهد إنماء المدن والعواصم العربية.

Spatial Configuration Influence on Mosque Relationship with the Urban Built Environment

Sadik Ahmed Sadik Saad
Department of Architecture, College of Engineering
Zagazig University, Banha Branch
Cairo, Egypt

Abstract : The way our urban fabric is formed reflects, clearly, social and cultural changes in our modern Arab and Muslim societies. These changes, which mostly are affected by western influences, have affected, negatively, some major aspect in these societies. One of these changes was the rule played by the mosque in Muslim society.

Does the spatial isolation or the separation of the mosque from its urban context, as a normal reflection to open orders used in our "modern" cities, help in giving the mosques a better place in the heart of the Muslim communities, as it was in the past? Or does that isolation or separation lead to isolate the activities of the mosque from its environment as such as its urban context?

In order to answer this question it was important to dive deeply beyond urban function and form to understand their symbolic meanings and their design language elements, with their reflection on the community activities. The morphological approach helped establishing criteria, qualitatively, which are used in better understanding of urban forms, spatial composition and urban orders. It was clearly seen that the open orders -as urban models used, widely, in most of our "modern" cities play a negative rule by helping isolating the mosques from their own environment. The closed order, on the other hand, does strengthen the relationship between the mosque and its environment functionally, socially, economically and esthetically.